١ . حكايات من الرحلات

للدكتور عبد السلام العجيلي

دار المعارف بمصر — ١٥٠ ص

•

على رأي المثل القائل باستحالة حمل بطيختين بيد واحدة ، يجب أن يكون الطبيب الأديب عبد السلام العجيلي قد نكب الطب بالادب او الادب بالطب ، او نكب نفسه بها جميعاً ، او نكبها جميعاً بنفسه . عـلى كل حال لا بد من النكبة . هذا إذا كان عبد السلام طبيباً وأديبـاً فقط ، فكيف إذا علمت انه ، الى ذلك ، رسام وشاعر ونائب سابق ؟!

لكن يظهر أن الدكتور العجيلي من شواذ القـاعدة . والدليل على ذلك ان الطب والادب والفن والسياسة مازالت بالف خير على يديه . .

إذن فلا بد من ان تنظر إلى القضية من ناحيـة اخرى ، هي قاعدة « كثير الكارات قليل البارات » ، وان تكن هذه ايضاً قضية فيها نظر ، بسبب سيارة الدكتور التي ورد ذكرها عرضاً في احدى حكايات كتابه هذا ، والتي حمل عليها صديقيه نشأت التغلبي واحمد علوش الى دير سيدة صيدنايا ، ليفي نذراً عن صديقته السويدية المتصوفة ، فكانت النتيجة ان التي بهـا هي في سجن «البيت الابيض» بباريس، وشرب هو متلباً من صديقيه افقدهِ الأيمان بمنافع النذور .

وعلى هذا أرى أن عبد السلام لا يمكن أن تنطبق عليـه قاعدة من مثل هذه القواعـد ، ومثله كان يصفه المقرظون القدماء بقولهم « نادرة عصره » . .

على انني لن اذهب هذا المذهب من المغالاة ، وانما اكتفي بالحديث عن كتابه « حكايات من الرحلات » .

هذه الحكايات مستمدة من فرنسا واسبانيا وايطاليا واسوج وهنغاريا وتركيا وسورية ، وكلها تستعرض الجد في معرض لهزل ، باسلوب طري مشرق ، ينساب انسياب الجدول الدفاق المترنم في وهج شمس الضحى . وهي متشعبة النـواحي ، في السياسة والاجتماع والفن والأدب ، ولكنهـا ، في مجموعهـا ، تنبعث ابداً عن نزعة إنسانية عميقة ،ونزعة وطنية تبلغ حـد لتصوف والاستغراق . أما اطـار ذلك فالنكتة المستملحة والاسلوب الناعم الرشيق، وعمق الصورة والشعور، والايماآت السريعة الخاطفة ، تنفتح أمامك كوى صغيرة، لكي تطل منها على رحاب ومجالات .

على ان عمق الصورة والشعور لن يحرك الى مسالك يكتنفها الابهام والظلمات ، بل انت تسير وسط نور كشاف يجعلك تتلمس قراراتها في يسر وسهولة .

وظاهرة أخرى في هـذه الحكايات ، هي انهـا اعطتني عن باريس اول صورة لم تنقبض لها نفسي . ولا يستغربن القارىء هذا القول . فقد قرأت كثيراً جداً عن باريس ومباهجهـا ولذاتها ، ولكني ، ولا أدري لماذا ، كان يوحى إلي دائماً من كل مـا قرأته ان جواً ثقيلاً من الكآبة والقلق يبطن تلك المباهج واللذاذات .

اما حكايات الدكتور العجيلي عن باريس فلم توح الي بشيء من ذلك ، بل لوحت الي بشيء من جو « السيران الشامي » على عين الخضرا ، والسهرة الصيفية في احدى قهـوات شارع بغداد بدمشق .

ولعل مرد ذلك الى مزاج الكاتب او طريقة معيشته في باريس لا الى حقيقة باريس نفسها .

هذا ويعجبني ان انقل هذا المقطع من حكاية سهرة سهرها المؤلف في قاعة «الكونسرڤوهوسيت» في استكهولم ، واحيتها فرقة من زنوج امـيركا بموسيقى الجاز ، الا ان « معدة » الـكاتب « الفنية » لم تقو على هضم هذه الموسيقى الرخيصة ، تعزف في هذه القـاعة التي « بنيت لتملأها فرق الاوركسترا العالمية بالحان نوابغ الموسيقى الكلاسيكية » ، ولذلك قطع سهرته وخرج .

وكتب في نهاية القصة :

« لقد الجأت الفاقة العالم القديم الى ان يقبل مشروعات اميركا للاعانـة والتعمير والتسليح . فيا بؤس هذا العالم حـين يصل به الامر ان تغذيه اميركا بالفنون الجميـلة ! وان يكون للموسيقى والغناء والشعر ، بعـد الفحم والبترول والحديـد ، مشروعات مارشال والنقطة الرابعة ! » . .

بقي ان اقـول للدكتور العجيلي ان كتابه الطريف لو ترجم الى لغة اجنبية لما فقد شيئاً من جماله ودعـابته الحلوة ،

لكن مـــا رأيه لو ترجمت « المقامة الباريسية » و « المقامة الجنيفية » الى لغة اجنبية ، هل يبقى منها شيء ؟ اعني ان هاتين المقامتين قد شذتا عن نمط الكتاب في عمق النكتة واصالة الصورة ووضوحها ، وكانتا اقرب الى العبث اللفظي المتكلف .

ومثل هذا العبث ايضاً كثير في « بوهيميون في سويسرة .. من لبنان وسورية » هذا مع العلم ان هذه الحكاية بقلم اديب مروة وليست للدكتور العجيلي ، اما سبب ايرادها في الكتاب فهو ان المؤلف احد ابطالها ..

٢ . بابلون

بقلم صفاء الحيدري

منشورات الرسالة الجديدة ببغداد

اوبريت من نظم الشاعر العراقي صفاء الحيدري . واعتقد ان اسم « ملحمة » كان اقرب الى حقيقة اسلوبها مـــن اسم « اوبريت » . او لعل الاصح ان اقول انه كان على الشاعر ان يجعل منها ملحمة ، فذلك اقرب الى طبيعة حوادثها .

فالحوار الاساسي فيها يقوم بين الشخص ونفسه ، أي بين نوازعه المختلفة ، ثم ان دور كل من هذه النوازع في الحوار يطول كثيراً ، وليس هذا من طبيعة الاوبريت ، ولعل ذلك هو ما جعل من القصيدة ملحمة في شكل اوبريت . اما الموضوع فهو قصة اميرة بابلية اسمها « بابلون » واخ لها من ابيها يتحابان ، فيخرقان بذلك الشرائع والقوانين ، فيحكم عليهما بالموت حرقاً .

وحينذاك تقتل بابلون اخاها بعد ليلة من ليالي حبها ، ثم تنتحر . والموضوع ، كما يبدو من شروح المؤلف ، له اساس تاريخي ، وهو موضوع خطير مثير يستحق ان تبنى عليه مغناة او ملحمة .

اما اخراج القصيدة ، فواضح ان الشاعر يحاول ان يعتمد الاسلوب الرمزي ، ولكنه لا يبلغ مستواه ، ويظل الاسلوب متأرجحاً بين الواقعية والرمزية ، فلا هو يوحي اليك بالصورة القوية إيحاء كما هو شأن الاسلوب الرمزي ، ولا هو يقدمها اليك مجردة مجسدة ، كما هو شأن الاسلوب الواقعي .

والنظم ، بوجه الاجمال ، ضعيف . خذ مثلاً هذا البيت من نشيد في وصف الليل وسكونه واشباحه :

تلك البيوت كأنهـ ـن حطام صارية ثمينه

فهو يشبه فيه البيوت ، كل البيوت بحطام صارية .. صارية واحدة !

ويقيناً ان هذه الصارية مهما تكـن « ثمينة » فحطامها من حيث الحجم ، شيء قليل تافه ، لا يساوي ركناً ضئيلاً من بيوت بابل واعمدتها وقلاعها وابراجها !

ثم ان وصف الصارية بـ « الثمينة » لا يعني الا ان هذه الصارية كثيرة الثمن ، وقد تكون هذه الصفة اولى بان تجعلها رشيقة ناعمة ، يبعث منظرها ومنظر حطامهـا صورة عكس الصورة التي ارادها الشاعر من غموض ورهبة وضخامة . ثم لا تنس انها صارية واحدة يشبه بحطامها ، مثلاً ، برج بابل نفسه !

وهذا مثل آخر ، من نفس النشيد :

وذراع لافتة تمـــــــدّ الى الطريق يداً مهينه

فعلى افتراض انه كان يوجد في شوارع بابل « لافتات » كما يوجد في شوارع المدن اليوم ، فلسنا ندري كيف تكون يد هذه اللافتة مهينة واي شيء او شخص تهينه هذه اليد وكيف تهينه؟ هذا اذا كان المقصود بـ «اللافتة» ما يسميه المصريون « يافطة » وما يسميه الشوام «آرمة» ، ولا نرى غير ذلك. وهذا البيت :

اتعبت نسرك يا بغـ ـي فهيئي السرر المتينه

اما النسر فيذكر الشاعر انه يشير به الى احدى الاساطير ، واما « تهيئة السرر المتينة » فتعبير يستنتج منه التهيؤ لممارسة الشهوات ، فان صح هذا الاستنتاج فاي لزوم لمتانة السرر ، إلا ان يكـــون ذلك تلميحاً مبتذلاً لعنف هذه الشهوات واستمرارها ؟ وهذان البيتان من الفصل الثاني :

والنار شائطة كلهـ ـفة آثم تستبطئينه

زرقاء يأكلها اللهيـ ـب كوجه من تتأملينه

فالضمير في « يأكلها » عائد الى « النار » كما يقتضي سياق الكلام ، وعلى هذا يكون قصد الشاعر ان اللهيب يأكل النار ، وبما ان اللهيب هو نفس النار فيكون المعنى ان النار تأكل النار ، وهذا غير وارد . نعم لقد قالوا قديماً :

النار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

ولكنهم قالوها بقصد آخر هو ان الشر يضرب بعضــه بعضاً ان لم يجد طرفاً آخر يضربه ، وليس هذا مـــا يقصده الشاعر طبعاً . اما اذا كان الشاعر يرجع الضمير في « يأكلها » الى « لهفة » فهو تكلف لغوي بعيد جداً عن الوضوح .

ومع هذا غموض في بعض الأبيات نفسها . خذ مثلاً هـذا البيت ، وهو بلسان « دافع الاثم والرذيلة » يخاطب بابلون ، على ما يبدو من شرحه :

اقسمت باسمك ليس في صمت الدجى ما تتقنينه

فهل المقصود ان ما في صمت الدجى لا تتقنه « بابلون » ام أن ماتتقنه « بابلون » ليس في صمت الدجى ، ثم ما هو هـــذا الشيء الذي لا تتقنه « بابلون » او لا يتقنه صمت الدجى ؟ ان ذلك غير واضح .

وهذا البيت ، بلسان « الدافع » نفسه وقد اشار إلى ثعبان هائل مقبل وسط الظلام إلى « بابلون » ، والظاهر ان الشاعر يرمز به إلى الشهوة الجسدية، إذا صح استنتاجي ، وبعد أن يصفه « الدافع » ويغري « بابلون » باستقباله ، يتصوره عائداً من عندها « محملا بغصون تينة » :

اني لالحـــبه يعو   د محملا بغصون تينه

فإلى أي شيء يرمز الشاعر بـ « غصون التينة » ؟ ان ذلك غير واضح أيضاً .

ومثل هذا ايضاً كثير في القصيدة .

وفي القصيدة بعض الأخطاء النحوية واللغوية ، كهذا البيت :

الموت لم يترك عـــلى   شفتيه غير صدى يخونه

فالفعل المضارع « يخونه » مرفوع في سياق نشيد قافيته مفتوحة ، فان قرىء مرفوعاً كان هناك خطـــأ عروضي ، وإن قرىء منصوباً كان هناك خطأ نحوي . وقوله :

هيا انتحيه عن السرير   وغلقي الابواب دونه

فقد استعمل « انتحى » بمعنى « نحى » والاولى تـأتي متعديـة بمعنى قصد ولازمة بمعنى جلس ناحية ، والمعنيان ليسا مقصودين في البيت .

الا ان القصيدة ، مع هذا لا تخلو من بعض الابيـــات والمقاطع الجميلة ، كقول الشاعر :

اني انسللت اليك من اقصى الجزيره
ومعي ليالي المثيره
الفجر احمـــله معي   وهجير احلام الظهيرة

*

طوفت في عينيك ابحث   عن سماي وعن نجومي

وكقوله :

الحب في عينيك كالموت   المقيم صدى ورؤيـــا

هذا وهناك مأخذ آخر لعل الشاعر نفسه غير مسئول عنه ، بل دار النشر التي اصدرت الكتاب . وذلك انها ذكرت في آخر الكتاب تعريفاً بالشاعر في سطور ، مع رسم له ، وهي طريقة حسنة . الا أن هذا التعريف اشتمل على اشياء نعتقد أن القارىء في غـــنى عنها ، كالقول ان الشاعر من اسرة كردية تنتمي إلى الشاه اسماعيل الصفوي .

ترى هل يؤثر في الميزان الشعري كون الشاعر ينتمي إلى الشاهات والسلاطين أو إلى العامة والصعاليك ؟ ان هذا النوع من الدعاية قد ولى زمانه . ثم القول بان شعره « يتسم بطابع فريد يميزه عن غيره » . فالحكم على شعر الشاعر يجب ان يترك إلى القارىء ، ولا يجوز ان تفرض عليه الاحكام سلفاً .

بقي أن أقول انه لا بد لي من كلمة في شاعرية الاستـاذ الحيدري ، والا ظلمته . وذلك ان هذه الشاعرية تتجلى ، برغم كل تلك السقطات ، واضحة قوية . لكنها لا تزال كالمادة الخام بحاجة إلى بعض الصقل ، وارجو أن يستخلص من النقد أداة لصقل موهبته وإنمائها ، فالنقـد ، لا التقريظ ، هو هـــذه الاداة الصالحـــة .

صادق صعب

The Arab World : Past , Present & Future
By Nejla Izzeddin

العالم العربي
ماضيه وحاضره ومستقبله
تأليف نجلا عز الدين

هذا كتاب اخرجته احدى دور النشر في مـدينة شيكاغو من الولايات المتحدة الاميركية في العام الماضي ، وقد ألفته احدى نابغاتنا اللبـنانيات واولى من حصلت منهن على شهادة دكتوراه في التاريخ من احدى كبريات الجامعات في الولايات المتحدة الاميركية ، فكانت مؤلفها خير سفير بين بني قومها وبـين الامـيركيين إذ اخـــرجت مطالعي كتابها منهم من ظلمات دعاية خبيثة كان قد سمم بها الصهانية وزبانيـــة التبشير الزائف والسياسة الغاشمة افكار اولئك الاميركيين عن العرب وواقعهم حتى أنكروا علينا فضائل تأصلت في نفوسنا والصقوا بنا رذائل نحـن منهـا براء ، فشهد لها المخلصون منهم ببراعة العرض ودقة البحث والتحلي بمنطق سليم مـع ما ينبض به قلبها من حب لبني قومها وعـــاطفة تقديـــر قلمـــا يستطيع بدونهما كاتب ان يدوّن تاريخاً او ينقل رسالة ؛ فاستحقت بذلك كل ثناء ممن عرفوهـــا منهم وخبروا علمها ووقفوا على طيب عنصرها ، حتى لقد رأينا مُصدر الكتاب يختم مقدمته القيمة بقوله : « فمن كان يرغب منكم في التعرف الى العرب فليقرأ هذا السفر ولسوف يجد نفسه في عـالم من الفكر يعي القيم الازلية التي بات عالمنا اليوم بامس الحاجة اليها اكثر مما كان الناس في العصور الوسطى عندمـا بسطها لهم العرب عهد ذاك » .

يقع الكتاب في اربعمئة صفحة من القياس الوسط ، اشتملت على ثمانية عشر فصلاً ، تحدثت المؤلفة في الاربعة الاولى منها عن : (١) بيئة العرب وامتداد عالمهم وما يقوم بين شعوبه من عوامل الوحدة واسباب الالفة والارتباط إن « باللغة والفكر اوالتاريخ والمعتقد » و (٢) عن « التراث الثقافي المشترك » فحددت مكانته من صرح الحضارة الانسانية و (٣) كشفت عن الدور الذي لعبه العرب في نهضة الاوروبيين وخروجهم من ظلمات عصرهم الوسيط الى انوار العصر الحديث. كما وصفت (٤) افول نجم الاجداد وانتقال زعامتهم الثقافيه للعالم الى ايدي الاوروبيين .

اما في الفصول الثلاثة التالية ، الخامس والسادس والسابع ، فقد صوّرت واقع العرب الراهن فبرهنت عن تململهم وتبرمهم بهذا الواقع وسعيهم الحثيث الى نفض غبار الماضي عنهم لاستعادة مكانتهم بين الامم الراقية فحدثتنا عن (١) انتفاضاتهم في المجتمع و (٢) جهودهم المتصلة لتكيفهم مع التيارات الغربية الجديدة التي طغت عليهم في حياتهم العامة ثم (٣) توجت حديثها بالكلام عن ثورتهم السياسية الكبرى التي دلت بحق عما يتوقون اليه منذ بزوغ فجر القرن العشرين من حياة حرة ، تكون لهم فيها السيادة على بلادهم ومقدراتها .

وهنا تعود الدكتورة نجلا فتجعل حديثها يدور على مصر وجهادها ضد الاجنبي في سبيل حريتها وسيادتها كما تعرض للمجتمع العربي فتكشف لنا عن ملامحه العامة ثم تخص الفصول الأربعة الاخيرة بالكلام عن سورية ولبنان والعراق وجزيرة العرب وفلسطين فالمغرب الأقصى فتحدثنا عن واقع شعوبها جميعاً .

ولما كانت الكاتبة تعتقد — ولا عجب — بسمو مكانة المرأة وطيب أثرها في المجتمع الانساني ، فقد افردت لها فصلاً تحدثت فيه عن حالة المرأة العربية في القرون القديمة من تاريخها ثم كيف منحها الاسلام حقوقاً جديدة وأقرها على أخرى قديمة ، جعلتها جميعها تسير قدماً مع الرجل جنباً إلى جنب مشاركة إياه خلال العهود الذهبية من تاريخنا في جهوده وجهاده غير متخلفة عنه في أكثر ميادين الحياة العامة إن في القضاء والعلم او في الشعر والسياسة ، ثم فصّلت الكلام في نهضتها الأخيرة فكشفت عن الشوط الذي قطعته حتى غدت اليوم تنهض مع زميلها الرجل باعباء الجهاد في شتى حقوله، واخيراً خلصت المؤلفة من كل ذلك الى عرض نضال العرب اليوم في سبيل تحقيق وحدتهم الكبرى بعد أن يستردوا حريتهم الكاملة ويزيلوا جميع العوامل المعيقة لهم في مختلف أقطارهم .

وقبل أن تختم الدكتورة نجلا كتابها ارتأت أن تتوسع في الكلام عن مطامع الدولة الكبرى فيما يزخر به العالم العربي من خيرات وكنوز وينعم به من مركز استراتيجي ممتاز بفضل موقعه في قلب العالم بين ثلاث قارات من قارّاته الخمس. ولم يفتها كذلك ان تصف جهودهم للتفلت من ربقة تلك الدول حباً بالسيادة المطلقة والاستقلال التام الناجز .

وقد اتت المؤلفة البارعة كل ذلك بلغة انكليزية مشرقة الديباجة ، ممتعة الاسلوب ، يصاحبها عمق في التفكير وحب لقومها لم يذهبا البتة بجلال العلم وصدق البحث مما رفعها في أعين المنصفين من الاميركيين وغيرهم .

ونحن لا يسعنا إزاء واجب النقد وحقه علينا الا ان نشير إلى ان السفر على ما تميز به من حسنات لم يخلُ من بعض الهنات التي بالرغم من كل ما سعى اليه بعضهم من تضخيمها (١) ظلت بعيدة عن ان تؤثر في الكتاب او ان تحط من قيمته العلمية والقومية فقد جاء خير ما يكتبه وطني صادق الشعور بل وطنية لتعريف الاميركيين وسواهم بمكانة العرب بين الشعوب الراقية الممدنة وبما ساهموا به في الثقافة البشرية سابقاً وبما يستطيعون من ذلك لاحقاً .

فنحن إذ نشكر للدكتورة عزالدين عملها المجيد ونقدم كتابها الى قراء « الآداب » نرى لزاماً علينا ان نمحضها تهانينا الخالصة على هذا الفتح الجديد في تاريخ العرب . وكم نتمنى ان يتاح لكتابها ان يترجم الى العربية فيضاف به الى خزانتنا مؤلف قيم وسفر جليل يعرّف جميع من يطالعه من العرب بسالف ماضيهم المجيد وحاضرهم المبشر بكل خير عميم ويعرف منهم ذوي القلوب المريضة خاصة والنفوس المتسممة بما ألقى في روعها اصحابُ الاغراض السقيمة من مبشرين زائفين واستعماريين جشعين علهم يشفون ويتعافون فيعون انفسهم وقومهم .

زكي النقاش
مدير كلية المقاصد الاسلامية في بيروت

(١) راجع العدد ٥ من مجلة Alkulluyah سنة (١٩٥٤) .

حول مسرحية سارتر

الأيدي القذرة

بقلم عبدالله عبد الدائم

منذ أمد قريب ترجم الى اللغة العربية كتاب سارتر « الوجودية فلسفة إنسانية » ، كما ترجم الرد عليه « الوجودية ليست فلسفة إنسانية » . وفي الآونة الاخيرة طلعت علينا « دار العلم للملايين » بترجمة لمسرحيـة سارتر الشهيرة « الايدي القذرة * » ، كما طلعت علينا مجلة « الآداب » قبل ذلك بترجمة موفقة لمسرحية « كامو » « العادلون » . وبعد حـين سوف يلقى القراء ترجمة أعدها الدكتور سهيل إدريس لكتاب يتحدث عن « سارتر » وأدبه وفلسفته من تأليف « ألبيريس » .

ومع ذلك لم تلق هذه الموجة الجديدة من الفكر الوجودي كبير عناية من الكتاب العرب . وما الظن بهم أن يعدوها هبوة عابرة ممـا تقذف به المطبعة العربية كل يوم . وأياً كانت الحال ، فـمن حق القراء على هؤلاء الكتاب ، فيما نرى ، أن يشتركوا وإياهم في تفحص مثل هذه الكتب وتدارسها ، وأن يجعلوا من كل نتاج يطل على دنيا العرب زاداً يبينون سماته ويشيرون إلى موضعه وشأنه . ويستبين هذا الواجب المفروض على الكتاب قوياً واضحاً ، إذا ذكرنا أن النتاج العربي يمر بمرحلة من الفوضى ، والقلق ، وأن ما يترجم أو يؤلف أو يدبج في مقال ، لا يتم دوماً لدى فاعله وفق خطة مرسومة مبيتة لها أهدافها ومنازعهـا ، كما لا يحاول قارئوه دوماً أن يتعرفوا على موضعه من حياة أمتهم وشأنه في جملة كيان البلاد الفكري . وكثيراً ما يكون تخير الكتاب لما يترجمون أو يكتبون تخيراً لا تمليه إلا صدفة عابرة أو نزوة سائرة . ولا عجب بعد ذلك أن يكون اصطفاء القراء لما يقرأون أكثر خضوعاً للصدفة واستسلاماً للفوضى .

ونعتقد أن هذه المرحلة التي تمر بها البلاد العربية تتطلب من كتابنا خطة منظمة في البحث والنتاج ، وتفرض عليهم أن يجعلوا هدفهم شق أخاديد واضحة مفيدة في عقول القراء وفتح طرق قوية سديدة تمهد لكيان فكري مكين . ويزيد في خطورة الامر أن النتاج الفكري ، إن لم يوجه بمثل هذه الخطة الواعية المحكمة ، وجهته غرائز الجمهور أو مطالب المشرفين على دور النشر ، فاذا به يحمل إلى القراء ما يهدهد غرائزهم المريضة وما يداعب حواسهم ، وإذا به يبغي هز الشهوات المبتذلة والاعصاب الواهنة ، قبل أن يبغي هز أعماق النفوس وإثارة مشكلات الحياة الاجتماعية . وهل أقتل للأدب والفكر من أن يرنقا تلك الأحاسيس العضوية اللزجة لدى القراء ويزيدا في غوايتها ، بدلاً من أن يخاطبا ما في نفوسهم من شرارات الفهم الصحيح والاهتمام الصادق بالمشكلات الجدية ؟ وهل من الجائز أن يكون هدف الفكر أن يلدغ بأفيونـه أولئك الذين تحتاج أعصابهـم المخـدرة إلى جرع كبيرة من المثيرات ، أو أن يحرق البخور لمن تطيب لهم رؤية الاطيـاف والاشباح ، فيروي خيالهـم المريض ويغرقهم في عالمهم الموهوم ؟ أوليس هدف الفكر أن يجلو الفكر الصحيح ، الفكر الذي يرى ويرى بوضوح وبينة ، والذي لا تحجبه عن الحقائق غشاوات الاوهام وسحب الاحـلام وأبخرة الغرائز ؟ وهل كانت مهمة الكاتب في يوم من الايام أن يهبط إلى مستوى غرائز الجمهور وأن يستفيد من ضلاله ، فيبيعه على حساب هـذا الضلال أنواع الرؤى الكاذبة والبضائع الزائفة ؟ أوليست مهمته أن يرفع ذلـك الجمهور إلى مستوى الجدية في التفكير والبحث ، وأن يدنيه من وضح النهار ، نهار العقل ونوره ؟

وبعد ، قد يكون لنا إلى مثل هذا الحديث الهام عود . وما قادنا اليه هنا إلا التساؤل عن موقف كتابنا من النتاج الذي يغزو الاسواق وعن واجبهم حيال ما يكتب ، وإلا شعورنا بأنهم مـدعوون إلى أن يقولوا كلمتهم في ترجمات تواترت في الايام الاخيرة ، تنقل إلينا بعض إفكار الوجودية .

ونود أن نذكر ، بهذا الصدد ، أننا لم نطلع على حديث عن هـذه الموجة الوجودية التي هبت على النتاج العربي إلا في كلمة قصيرة عـابرة ، نشرتها جريدة « صوت الاهالي » العراقية ، وكتبها « غائب طعمه فرمان » . وقد كتبها لمناسبة ظهور ترجمة « الايدي القذرة » . وهي في الواقع هجاء قبل أن تكون تحليلاً عميقاً دقيقاً لمثل هذا الكتاب الذي لا تجوز الإشارة إليه بمثل ذلك العبث الخانق . وهي ، على جمالها ، تتسم بما تتسم به كثير من الكتابات التي أشرنا إليها منذ حين ، نعني أنها تحاول أن تهيج أعصاب القارىء وحواسه ، قبل أن تحاول إفهامه وإنارة ذهنه .

عـلى أن الكاتب معذور فيما فعل بعض الشيء : فالوجودية لقيت مطاعن من نوع مطاعنه في كثير من البلدان ، وعالجها كثير من الكتاب بهذا الاسلوب الثائر العصبي . ولم تكن دوماً موضع بحث واع دقيق . والكاتب معذور أيضاً لسبب آخر : وهو أنه ينظر إلى الامور ، فيما يبدو لنـا ، نظرة مغشاة بحماسة حزبية كثيراً ما تطمس حقائق الاشياء . فهو يحسب أن الرواية حملة موجهة ضد الحزب الشيوعي وأسلوبه ، بل ضد

(*) نقلها الى العربية الدكتور سهيل ادريس والاستاذ اميل شويري ، ١٨٠ ص.

النتاج الجديد

يتناول الاستاذ عبدالله عبد الدائم في هذا المقال موقف بعض النقـاد ، ممـن يكتفون بالنظرة السطحية ، او ممن تضرب اهواؤهم الشخصية غشاوة علـى عيونهم حين يتناولون كتـاباً ما بالنقد او التحليل ، فيسيئون الى الكتـاب المنقود ، والى انفسهم في وقت واحد . ثم يحلّل الكاتب مقاصد « سارتر » في مسرحية « الايـدي القذرة » . ونحن مع تحفّظنا تجاه بعض تحليلات الاستاذ عبد الدائم ، في تصوير شخصيات المسرحية ، ولا سيا شخصية « هوغو » ، نعتقد ان هـذا المقـال نموذج يحتذى في النقد والدراسة الموضوعيين .

« التحرير »

جميع الاحزاب. ويعتقد أن من شأنها أن تزيل ثقة الناس بالاحزاب والنظام الديمقراطي، مبينة لهم أن الحياة الحزبية « عبث ولهــو ومجون » وأن القائمين عليها يسعون إلى « حاجات شخصية ، ويتصارعون من أجل غايات خاصة » . ولهذا نراه ينتهي بأن يحكم عليها ذلك الحكم الذي غـــدا ، فيما نعتقد ، بغيضاً إلى النفوس ، فاقداً معناه وهو وصمها بأنها تخدم مصالح المستعمرين والرجعيين وسماسرة الاوضاع الفاسدة . ورأينا أن مثل هذا الحكم على مؤلف أدبي هو أول ما ينبغي على الكتاب اجتنابـــه ، لئلا يقعوا في الابتذال ولئلا يستعبدوا للألفاظ الكبيرة الجوفاء .

وما غرضنا هنا أن ندافـع عن سارتر او عن مسرحيته . غير أن الذي نريد ان نقوله هو ما يوافقنا عليه كل انسان، نعني ان الحديث عن مثل هذا الكاتب لا يكون بمثل هذا الاسلوب القاطـع الذي لا يحتمل الاستئناف أو التمييز ، وان « المسرحية » لا تنقد بمثل هذه الأفكار المبيتة الضيقة . أفلا يشترط لفهم أي كتاب حد ادنى من فتح النفس له وتقبله ؟ حد ادنى من الكرم ؟ وهل يستطيـع ان يدرك ما يقوله الآخرون من غاق ابواب نفسه سلفاً دونه ، وواجهه مغاضباً مشيحاً بوجهه ؟ وهل يفيد القراء حقاً نقد يدركون عند قراءته أنه يجاوز الحدود مجاوزة مغرقة ، وأنه يسرف ولا ينصف ؟ وهل من تربية فكر القراء في شيء أن نعودهم على هـــذا النوع من النقد الجامح الارن ؟ لقد وحد « برغسون » بين المتجمــد والمضحك ، واعتبر مما يثير الضحك التصاب وفقدان المرانة والجنوح إلى الشيء المقنن المرسوم سلفاً . ونحن نكبر الكتاب ، وهم أبعد الناس عن مثل هذا التجمد ، عن أن ينحدروا في مثل هذا المنزلق اندفاعاً مـع سورة تحطم ما في فكرهم من آفاق لينة رحيبة .

والحق ، إن المشكلة كلها مردها إلى فكر « سارتر »نفسه . ففي افكاره وآرائه عامة دقة كثيراً ما تخفــى على الفطناء ؛ وهي بالاضافة الى هذا لا يمكن ان تؤخذ منفصلة عن سياقها العام : فكل فكرة عنده ينبغي ان تفهـم من خلال فلسفته العامة ونظرته الشاملة . وكثير من اقواله يمكن ان تحمل على غير محملها إن اخذها القارىء مبتورة مقطوعة عن نسغها الاصلي . وكثيراً ما يعتقد قارئه ان القصد من افكاره هو هذا الشيء المعين ، بينما هو يريد في الواقع شيئاً آخر لا يستبين إلا لمـن أدرك فكره في جملته ومن خلال مذهبه الكلي .

وهكذا نراه مثلاً في رواية « الايـدي القذرة » يود في الدرجة الأولى ان يشرح بعض الافكار التي قد يحسبها القارىء العادي ثانوية في الرواية ليستر بذات بال بينما هي عند صاحبها قلب الموضوع . فهو يريد اولاً ان يبيّن فكرة عزيزة عليه ، وهي الصلة بين ذات الشخص وذات غيره ، وأثر **النظرة** التي تلقاهـا من الشخص **الآخر** في خلق الانفعالات وتوجيههـا . والذي يريد ان يصفه عندما يحدثنا عن تخاذل « هوغو » وتراجعه عن قتل « هودرر » في البداية ، ليس هو ، كما قد تظن ، خـور الانسان وضعفه وتراجع الحزبي حين يكشف انحراف قـادة حزبه عما يراه من مبادىء ؛ بل الذي يريد ان يصفه قبل هذا هو تراجع الانسان عامة عندما يلقى إنساناً آخر وجهاً لوجهه وعندما يحاول ايذاءه او قتله وهو ينظر اليه ويحدثه ويعرف ما يدور في رأسه :

هوغو : — « إن اي انسان يستطيـع ان يقتل اذا لم يقسر على رؤية مايفعل » (ص ١٢٥) .

هوغو : — « لو كان باستطاعتناأن نطلق مشيحين برأسنا » (ص ١٢٦) .

هودرر مخاطباً هوغو : « هل تستطيع ان تعدمني الحياة بإطلاقك ببرودة رصاصة **بين عيني** لأنـني لست من رأيـك في السياسة ؟ » (ص ١٥٧) .

هودرر مخاطباً هوغو ايضاً : « هل يمكنك ان تقتلني بينما انا انظر اليك ؟ » (ص ١٥٩) .

وأثر النظرة ، نظرة الشخص الآخر ، في انفعال الانسان ومواقفه أمر يهب له « سارتر » كما نعلم قيمة خاصة . وقـــد فصّل الحديث عنه خاصة في كتـــابه عن الأنفعالات وفي كتابه « الوجود والعدم » ؛ ولا يتسع المجال هنا للحديث عنه .

ثم إن « سارتر » يريد بعد ذلك ان يصف لنا حزبياً من طراز خاص ، كثيراً ما نقع عليه في الحياة . وهو اذ يصفه ، لا يريد من وراء ذلك ان يطعن في الحزبيين ومواقفهم ، وانما يريد فقط ان يعرفنا على نموذج من الناس نعرفه جميعاً . انـه يحدثنا عن « هوغو » وتصرفاته وتساؤلاته وما يثور في ذهنه حين كلفه زعيم حزبه ان يقتل « هودرر » لأنه خطر عـــلى الحزب . « وهوغو » ليس مثالاً لكل حزبي ، وانما هـــو شخص من نوع خاص كثيراً ما نقـع عليه . وليس سلوكـه نتيجة حياته الحزبية بل نتيجة طبعه الخاص وظروفه الخاصة . إنه إنسان نشأ مدلّلاً ، ولم يعرف في صباه شهوة الطعام ، وكان والداه يفتحان فمه ويقولان له : « ملعقة من اجل البابا وملعقة من اجل الماما وملعقة من اجل انّا ... » . وهو بعد ذلك مثقف مُتخم ثقافة وعاش بين الكتب ، واكتسب مـن وراء ثقافته روحاً بورجوازية لم يستطع التخلص منها . وقد دخل الحزب الشيوعي من قبيل الهواية والترف ، ككثير مـــن المثقفين الذين يريدون ان يضيفوا الى ثقافتهم وساماً جديـداً عن طريق الانتساب الى الحزب . وظلّ في تفكيره الحزبي ضيق النظرة ، يعشق المبادىء لذاتها عشقاً جامداً ، ويتوخى

فيها « **طهارة تشبه الموت** »؛ بل هو يتذرع بتلك الطهارة، كما قال له « هودرر » كي لا يؤدي عملاً ما ، كما يفعل كثير من المثقفين . وهو يعتبر المبادىء غاية في ذاتها لا وسيلة لاصلاح البشر . فهو لا يحب إلا هي ، ولا يحب من خلالها البشر والناس . إن الذي يهمه في الناس « ليس ما هم عليه وإنما ما قد يصبحون » . وهو في الوقت نفسه يدرك ادراكاً لا شعورياً انه لا يصلح لان يكون ثورياً حقيقياً وانه مقصّر عن شأو قادة الحزب الآخرين . لهذا يريد ان يعوض عن هذا الشعور وان يثبت لنفسه انه قادر على أفعال الحزبيين الأشداء. ونتيجة لذلك ينزع إلى ان يقوم بعمل هائل كبير ، يدل في اعماقه على جبن كبير وعلى رغبة في اثبات الشجاعة حيث لا شجاعة . انه يريد ان يقتل ويغتال كما يفعل غيره . أنه يملّ عمله الاصلي وهو الضرب على الآلة الكاتبة والتحرير في الجريدة ، ويريد ان يكون كأولئك الذين كانوا في روسيا في اواخر القرن الماضي : « كانوا يعترضون طريق الدوق الكبير ، وفي جيوبهم **قنبلة** . وكانت القنبلة تنفجر ، فيتطاير الدوق الكبير أشلاء ، وكذلك حامل القنبلة » . إنه يريد ان يشعر بوجوده عن طريق عمل ٍ خطير ، عزم صاعق ، فعل حرّ (وهذه فكرة عزيزة على سارتر وعلى الوجوديين عامة كما نعلم) . إنه يهدّد بترك الحزب اذا اناب عنه احداً في قتل «هودرر» . ذلك انه كما قلنا فاقد الثقة بنفسه ، ويريد دوماً أشخاصاً يمنحونه هذه الثقة ، ويريد دوماً ان يقوم بأعمال توهمه بأنه جدير بالثقة :

هوغو لزوجه : ــ «وكيف تريدين ان تعيشي إذا لم يكن هناك من يمنحك ثقته ؟..» (ص ١٢٣) .

بل انه يحجم عن قتل « هودرر » لأنه منحه ثقته ، ويأسف عليه بعد قتله له للسبب نفسه .

هذا هو « هوغو » كما يصفه لنا « سارتر » . فهل يعلمنا عن طريق هذا الوصف التخاذل والجبن ؟ وهل في وصف هذا النموذج من الحزبيين من حرج ؟ افلا يريد عن طريق ذلك انه يفضح حقيقة امثاله من المثقفين الذين يتطوعون لجلائل الأعمال الحزبية بدافع شبه مرضيّ ؟ افلا يريد ان يقول لنا ما قاله « هودرر » لهوغو : « ليس خير الاعمال ما يكلفك اكثر ، وإنما خيرها ما تصيب فيه نجاحاً أوفر . » ، وان يبين لنا ان بعض البطولة الظاهرية تعبيرٌ عن جبن دفين وكره للحياة والاحياء ؟ افلا يكشف لنا عن اولئك الذين يريدون ان يبرهنوا لأنفسهم انهم قادرون على العمل فيختاروا « الطرق الصعبة » ؟ افلا يقول لنا على لسان هودرر ، إن من واجبنا ان نحذر ممن يعصف برأسهم ان يمثلوا دور القتلة وان نؤثر عليهم « اولئك الناس الذين يخافون موت الآخرين ، لأن ذلك دليل على انهم يعرفون كيف يحبون » ؟ ثم هل نستطيع ان ننكر انه يبين اجمل بيان مآسي عبادة المبادىء عبادة الصنم ، دون ما نظر الى غايتها وهدفها ؟ وهل لا نعاني في بلادنا العربية الشيء الكثير من مثل هذه العبادة الجامدة الضيقة ؟

وعسير علينا ان نحصي جميع الافكار الهامة العزيزة على « سارتر » في هذه الرواية والتي يمكن ان نجد فيها غذاء فكرياً قوياً للقاريء العربي . على اننا لا نريد مع ذلك ان نقول ان « سارتر » لا يبغي في روايته سوى ايضاح هذه الافكار وحدها دون التعرض للمشكلة السياسية عينها ، مشكلة الصراع بين الهدف والوسيلة في العمل الحزبي . فايضاح مثل هذه المشكلة من اهداف « سارتر » الرئيسية في كتابه ، ومن الامور التي يحرص عليها في فلسفة عامة . غير ان ما نريد ان نقوله في ما يتصل بهذه المشكلة ايضاً هو ان «سارتر» يهدف فيها إلى هدف لا ينجلي للقارىء لأول وهلة : فهو يود ان يبين تغير الافكار بتغير الظرف الاجتماعي ، او انبثاقها ، بتعبير اصح من هذا الظرف الاجتماعي عينه ، معارضاً ما يقوله غيره من وجود حقيقة ثابتة لا تحول ولا تزول ، ومن وجود طبيعة إنسانية نهائية أزلية ، تامة التكوين سلفاً ! موضحاً أن الأفكار والاتجاهات تولد مع الظروف الاجتماعية وتخلق معها ، وأن موقف الانسان من الأشياء هو موقف فيه خضوع للمرحلة الاجتماعية التي يمر بها ، وفيه في الوقت نفسه حريةٌ وإرادة شخصية .

وهذا التفسير المزدوج لسلوك الانسان هو الذي يجعل فكرته دقيقة صعبة . فهو يرى أن الكائن الانساني كائن تاريخي (فكرة الـ Gechichlichkeit الشهيرة) يعيش في المرحلة التاريخية التي يمر بها ، ويُخلق بتأثير المجتمع وظروفه . ولكن هذا الكائن الفرد في الوقت نفسه يصنع الظروف ويخلق المجتمع . فهو مقيدٌ وحرٌ في آن واحد . وهو خالق مصيره ولكن هذا المصير يستلهمه من مجتمعه وبيئته . وقد بيّن خير بيان في المقدمة التي قدّم بها لمجلة «العصور الحديثة» أول ما صدرت ، كيف أنه يأبى أن ينظر إلى الانسان نظرة تحليلية مجزّئة

تفصل بين وجوده ووجود مجتمعه ، وكيف يرى على العكس أن كل عاطفة لديه ، وكل تفكير ، وكل سلوك تعكس وضعه الاجتماعي .

وهكذا يبين في روايته أن كلاً من «هودرر» و«لويس» وهما من قادة الحزب الشيوعي في إيليريا ، يصنع آراءه حراً مختاراً ، ولكنه في الوقت نفسه يتأثر بالمرحلة التاريخية التي تجتازها بلاده . فلقد كان لويس على خلاف مع « هودرر » في البداية ، ولكنه في نهاية الأمر ، عندما أخذت الجيوش السوفييتية تقترب ، انتهى مع بقية قادة الحزب إلى الأخذ بوجهة نظر « هودرر » ، لأن المرحلة التاريخية أصبحت تقتضي ذلك ، ولأن وعيه لهذه المرحلة التاريخية قد تمّ بفعل عمل ذاتي حر .

ولا يعني هذا ، كما قد يُظن ، أن الانسان غير مسئول عن أفعاله ، ما دامت محكومة بالظروف الاجتماعية ، وأنه غير مسئول عن آرائه مادامت وليدة المرحلة التاريخية . وما يريده «سارتر» هو العكس تماماً . إنه يبيّن مسئولية الفرد الكبرى : ويرى أن كل عمل يقوم به يضيف شيئاً جديداً إلى كيانه ومصيره ويخلقه خلقاً جديداً . فهو يتكوّن بتأثير أفعاله ، وليس كائناً مكوّناً منذ البداية . وهو عندما يعمل ويختار لنفسه يختار للآخرين في الوقت نفسه : أي يشرّع مبادىء عامة . « فالفرد هو الأرض كلها » . وهو وإن كان لا يستطيع دوماً أن يفعل ما يريد ، لأن الظروف الاجتماعية تؤثر فيما يفعل ، مسئول مع ذلك عما يفعل وعن حاله ومصيره ، بل لا يفعل ما يفعل الا وهو يريده . إنه لا يتأثر بالظروف تأثر المنفعل القابل ، تأثر الحجر الجامد ، وإنما يتأثر بها تأثر الفاعل الذي يعطي لهذه الظروف معنى ويقبلها أو لا يقبلها . فهو الذي يجعل من نفسه شيوعياً أو عاملاً أو ثورياً . وهو مسئول عن هذا الاختيار . **« فهو ملزم مقيد كلياً ، وهو حر كلياً »**.

ولا نريد أن نسترسل في هذا البحث عن الحرية والتقيد عند « سارتر »، فهو بحث يستنفد الصفحات الطوال . وحسبنا أن ندرك من وراء ما ذكرنا دقة فكرته ، وأن نرى من أي منظار ينظر إلى المشكلة التي تعنينا ، مشكلة الهدف والوسيلة ، في روايته .

على أن هذا لا يعفي «سارتر» من الملامة : فهو دوماً يعرض أفكاراً في رواياته يصعب على القارىء العادي أن يفهمها كما يريد هو ، وكثيراً ما تُفهم على عكس ما يريد . ومهما نبرىء «سارتر » تظل هنالك حقيقة ينبغي ألا ننساها : وهي أن في كل رواية اتجاهاً لا بد أن يفهمها القارىء من خلاله ، وأن فيها خطوط قوى ، إن صح التعبير ، (كخطوط القوى في ساحة مغناطيسية) تجعل القارىء ينجذب إليها فيدرك الرواية من منظارها . وهذا الاتجاه وتلك الخطوط في روايات «سارتر» توجه القارىء غالباً ، والقارىء العادي خاصة ، إلى غير الوجهة التي يريدها «سارتر» . ولا بد من كثير من التأويل والتفسير حتى يستطيع المرء أن يغي باطن الأمور ويدع ظاهرها : مما يعرّض قراءه لكثير من الانحراف ، ومما يعرّض أتباعه أيضاً ، كما حدث فعلاً في مقاهي «فلور» و « مابييون » وكهوف سان جرمان دي بري ، إلى حمل آرائه على غير محملها والانطلاق بها إلى غير مقعدها . وهكذا نراه يقضي معظم نشاطه في مد وجزر ، في أفكار يعرضها عرضاً موهماً ملتبساً ، ويضطر بعد ذلك إلى شرحها والدفاع عنها ودفع التهم دونها .

وهذه الظاهرة تضطرنا ، فيما نعتقد ، إلى الظن أن في أفكار «سارتر» تناقضاً باطنياً أصيلاً في بعض الأحيان ، وإن كان ذلك التناقض يأتيها من تناقض الحياة نفسها والتباس تياراتها : وسارتر حريص قبل كل شيء على أن يعرض الحياة في تناقضها ونقصها . على أن لنا عودة إلى هذا كله ، وكل ما قلناه دون شك في حاجة إلى فضل تفصيل .

دمشق **عبد الله عبد الدائم**

صدر حديثاً

الجزء الرابع من سلسلة الحارثيات

أنا عائد من برلين ..

للدكتور جورج حنا

وفيه انطباعات المؤلف عن رحلته الاخيرة الى برلين الشرقية والغربية مكتوبة باسلوبه الثائر المعروف .

الثمن ليرة دار العلم للملايين